HUBB

AL-ISLAM WA-AL-MUSLIMUN

Princeton University Library
32101 072545922

2271
.376
.349

2271.376.349
Hubb
al-Islam wa-al-muslimun

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

الاسلام والمسلمون

فى

أفريقيا الجنوبية

تقـــرير

للدكتور محمود حب الله

مبعوث الأزهر إلى أفريقيا الجنوبية

وأستاذ الأخلاق وعلم النفس بكلية أصول الدين

مطبعة الازهر

Ḥubb Allāh, Maḥmūd
111

الاسلام والمسلمون

فى

al-Islām

أفريقيا الجنوبية

تقـــرير

للدكتور محمود حب الله

مبعوث الأزهر إلى أفريقيا الجنوبية

وأستاذ الأخلاق وعلم النفس بكلية أصول الدين

مطبعة الازهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه . وبعد :

فهذا موجز يصف أحوال الإسلام والمسلمين فى أفريقيا الجنوبية ، ويقترح من العلاج ما يساعدهم على النهوض بمستواهم الثقافى فى كل من الدراسات المدنية والدينية والعربية ، ويؤدى فى النهاية إلى النهوض بمستواهم الأدبى والسياسى كذلك .

وهو نتيجة ملاحظات دقيقة ، ودراسات مخلصة ، ومشاهدات شخصية ، وسماع من مصادر مختلفة يندر ، بحكم العادة ، أن تتواطأ كلها على الكذب .

وعلى الرغم من أن المدة التى قضيتها هناك مدة قصيرة لا تسمح بدراسات مستقصية ، فقد كفت لتعرف الحياة ، على وجه عام ، واستخلاص صورة صادقة تمثل ما هنالك تمثيلا صحيحاً .

ولقد ساعدتنى الظروف على الاتصال بطبقات مختلفة من السكان - من المسلمين وغير المسلمين ، ومن رجال التعليم والسياسة والاقتصاد . لذلك يمكن أن أقول ان تقريرى هذا ليس تصويراً لوجهة نظر المسلمين فحسب ، ولكنه صورة لواقع يمكن أن يشاهده كل من يحاول أن يرى ويدرس من غير أن يتحيز لهذا الجانب أو ذاك .

وأود ، قبل الخوض فى الموضوع الخاص ، أن أشير اشارة عابرة إلى بلاد أفريقيا الجنوبية وإلى سكانها وأوضاعها العامة ، الطبيعية وغير الطبيعية على السواء .

12-1-61 O.K.
2271
.376
.349

وصف عام للبلاد

يطلق على تلك البلاد « اتحاد أفريقيا الجنوبية » . وهو واقع فى الطرف الجنوبى من القارة الافريقية . وهو بلد مستقل وعضو فى مجموعة الأمم البريطانية المتحدة . ويتكون من أربع ولايات : ولاية الكاب ، وولاية الترنسفال ، وولاية الناتال ، وولاية البرتقال الحرة . وتبلغ مساحة هذه الولايات الأربع ٤٧٢٫٥٥٠ ميلا مربعاً .

ويوجد فى وسط الاتحاد وفى طرفيه الشرقى والغربى ثلاث ولايات أخرى ، يسكنها وطنيون غير الوطنيين المقيمين فى الاتحاد : هى « سوازيلاند » و « بسوتولاند » و « بشونالاند » . غير أنها تحت السلطة البريطانية ، ويتولى شئونها العامة المقيم العام الانجليزى قبل حكومة الاتحاد .

وتتمتع البلاد على وجه عام بالرخاء ، وبكثير من المزايا الطبيعية والاقتصادية ، التى تتيح لها فرصة طيبة فى الحياة . فجوها معتدل فى الصيف والشتاء ، ويحيط بها من الشرق والغرب والجنوب المحيط الهندى والمحيط الأطلانطيق ، ويتخللها كثير من الوديان والتلال والجبال والغابات والسهول ، وينزل فيها كثير من الأمطار . لذلك كانت تربتها خضراء فى أكثر أيام العام . ولذلك أيضا نمت فيها الثروة الحيوانية والزراعية ، وكثرت فيها الأبقار والأغنام ، وتوافرت فيها الأصواف والألبان ، والحاصلات الزراعية : من القمح والشعير والأذرة وقصب السكر والتبغ وجميع أنواع الخضر والفواكه .

وهيأت لها سواحلها الطويلة من الموانى البحرية ما جعلها مركزا كبيرا للتجارة ، على الرغم من بعدها الشاسع عن البلاد الكبرى فى العالم ، وما وفر عليها الكثير من الأسماك ومن الثروة البحرية .

وفيها من الثروة الطبيعية والمعدنية الشيء الكثير : ففيها الذهب والفضة ، وفيها النحاس والقصدير والحديد ، وفيها الفحم والخشب ، بل فيها أجود أنواع الخشب ، وفيها البلاتنيوم ، وفيها الماس ، وفيها من كل ذلك وغيره الشيء الكثير .

وليست البلاد فى حاجة لأن ترسل هذه المواد الخام إلى الخارج لتحويلها إلى مواد ينتفع بها الإنسان ، لأن لديها من المصانع والمعامل ما يؤدى تلك المهمة . فهى ، فى هذه الناحية ، مستقلة كل الاستقلال عن العالم الخارجى .

وترتبط البلاد الداخلية بعضها ببعض بشبكة كبرى من الطرق الزراعية المعبدة ، والمواصلات البرية والبحرية والجوية ؛ ولذا كان الانتقال فيها سهلا ميسورا لكل إنسان .

وأما مستوى المعيشة فيها فهو ، على وجه عام ، أعلى منه فى مصر . وحاجياتها متوفرة ، غير أن أثمانها أعلى منها فى مصر ، إذا استثنينا أنواع الفاكهة ، فهذه أقل منها فى مصر بكثير . ويوجد هناك كثير من الأغنياء الذين يملكون الملايين فى التجارة والصناعة والزراعة .

سكان البلاد

تختلف وجهات النظر فى تحديد « من هم السكان الأصليون لهذه البلاد ؟ » . فيرى الوطنيون — ذووا البشرة السوداء — ومن حذا حذوهم أنهم السكان الأصليون لهذه البلاد ، وأن غيرهم دخيل وطارىء ، وأن الدماء التى أريقت ، والحروب التى أثيرت بينهم وبين الرجل الأبيض كانت دفاع الوطنى عن وطنه ضد الدخيل الغاصب ، وأن النزاع الذى لا يزال قائما بينه وبين الحاكم الأبيض

ليس إلا استمراراً لهذا الكفاح الذى بدأ فى القرن السابع عشر حين نزل الرجل الأبيض هذه البلاد وحاول السيطرة عليها .

ولكن يقول الرجل الأبيض من السكان ومن حذا حذوه ان البيض ليسوا غاصبين أو مغتصبين لهذه البلاد ، فقد نزلوها فى القرن السابع عشر فوجدوها قاعا صفصفا ، وخالية من السكان . ولما استقر بهم المقام ، ورغبوا فى تعمير الأجزاء الداخلة فى البلاد ، وزحفوا نحو الشمال التقوا فى زحفهم بجماعات الزنوج الزاحفة من ناحية خط الاستواء وأواسط أفريقيا متجهة صوب الجنوب : نحو المحيط الهندى والأطلانطيق . فالتقت الجماعات الزاحفة — الأبيض نحو الشمال والأسود نحو الجنوب — فى مكان ما فى الداخل ، ووقعت بينها معارك ومذابح انتهت بتغلب الرجل الأبيض وخضوع الأسود له .

وسواء أصح هذا القول أم ذاك ، فلا شك فى وجود هذين العنصرين هناك . غير أن الغلبة ، من حيث العدد ، فى جانب الرجل الأسود ، وأن السلطان والتسلط فى جانب الرجل الأبيض .

فالبيض حكام البلاد وأمراؤها ، وأرباب التشريع والتنفيذ فيها . وهم أرباب الإقطاعيات الزراعية الكبرى ، وأرباب الصناعات ، وبيدهم كل الأعمال الفنية والميكانيكية . وهم أرباب الثروات المعدنية ، وكل ثروة ذات أهمية فى البلاد .

وأما الوطنيون فهم الخدم والعمال ، وهم أرباب المهن الحقيرة والحرف المبتذلة ؛ ويتجاوز عددهم تسعة ملايين من النفوس . وأما الأوربيون فلا يزيد عددهم عن مليونين ونصف المليون .

ويوجد بجانب هذين العنصرين عنصران آخران يقيمان فى تلك البلاد من زمن بعيد : هما « الملونون » و « الآسيويون » . فالأولون هم الذين جاءوا نتيجة

للاتصال بين الرجل الأبيض وغيره ، فبينهم وبين الرجل الأبيض قرابة ، لأنهم أبناء عمومة . ولكن لا يعترف لهم بهذا الحق ، بل يخضعون ، مع قليل من الرحمة ، للقيود التى يخضع لها غير الأوربى ، والتى تميز بين الأجناس المختلفة ، وتجعلهم خاضعين للرجل الأبيض وأقل منه فى الحقوق والامتيازات . فكأنهم جنس مستقل بنفسه ، فى حين أنهم ليسوا فى الواقع كذلك . وهؤلاء يقاربون المليون .

وأما الأسيويون فهم الذين نزحوا لهذه البلاد من قارة آسيا ، سواء أكانوا من الهنود أم من الصين أم من اليابان أم من غيرها من بلاد آسيا . وعدد هؤلاء يزيد قليلا على ثلثمائة ألف من الأشخاص .

هذا ، ولكل طائفة من هذه الطوائف تشريع خاص بها ، وهى كلها ، على وجه غام ، ومن ناحية التشريع والتنفيذ وقوانين التملك ، فى جانب ، والأوربى ومن فى حكمه فى جانب آخر . فالأبيض هو السيد ، وهو الحاكم ، وهو المشرع ، وهو المنفذ لما يشرع ، وليس لغيره حق فى شىء من ذلك . فليس له الحق فى أن ينتخب أحداً ، وليس له الحق فى أن ينتخب كذلك ، اللهم إلا فى المجالس البلدية وفى بعض الولايات فحسب . وسيسحب هذا الحق قريباً . ولا يشغل واحد منهم عملا حكومياً إلا عند الضرورة القصوى بشرط أن يكون عملا غير فنى ، وكذلك الشأن بالنسبة للمصانع والمعامل والمناجم . ولا يدخل واحـــد منهم الفنادق المعدة للبيض أو مطاعمهم أو مرافقهم العامة ، وتجد فى قاعات القضاء والمحطات والإدارات الحكومية والمرافق العامة مكانا للأبيض وباباً لدخول الأبيض ، وآخر لغير الأبيض ، ولو خالف واستعمل باب الأبيض أو مكانه لعوقب قانونا لمخالفته قانون قواعد الآداب العامة . إذ تسمى فعلته هذه "Immorality act" « عملا مخالفاً للآداب » .

وعلى الرغم من صرامة تلك القوانين وشدتها ، فيبدو أن الرجل الأبيض لم يرها كافية لحصانته وللاحتفاظ بكرامته وبمركزه القوى فى البلاد ، فأصدر تشريعاً

جديداً "Group area act" ، يقصد منه حصر كل جنس من الأجناس المختلفة فى مكان خاص لا يتعداه ، يكون مقراً لعمله ولسكناه . فسيكون الهنود فى مكان ، والملايويون فى مكان آخر ، والصينيون فى ثالث ، واليابانيون فى رابع ، والوطنيون فى خامس ، وهكذا . ويخشى الكثيرون أن يصبح هذا القانون عند تنفيذه أداة تقصم ظهر أرباب الثراء من هذه الطوائف غير الأوربية ، فيصبحون بين يوم وليله فقراء أو أشباه الفقراء .

تلك القوانين الصارمة ، وهذه التفرقة بين الأجناس فى القطر الواحد ، ضاعفت الهوة بين الطوائف المختلفة ، وجعلت ميول كل واحدة منها مركزة نحو طائفتها لا نحو الجماعة العامة ، بل قوت الروح الفردية عند كل فرد وعند كل طائفة . فأصبح الهدف لكل فرد تحسين حالته الفردية أو حالة طائفته على خير التقادير . وغدت البلاد فى نظره كسوق يقصده للمغنم والكسب والتجارة ، لا كوطن دائم يربط به مصير نفسه ، ويعمل على تقويته والنهوض به واسعاده .

تلك حالة يرثى لها فى بلد نرجو له كل خير . وقد قابلت كثيراً من الأوربيين هناك ، فوجدته يشاركنى فى هذا الرأى ، ويرثى لتلك الحالة التى عجزت عن أى توجد وحدة من الشعور بين أبناء الوطن الواحد ، أو التى عملت على إيجاد شعور متباين بينهم ، وفرقتهم شيعاً وطوائف .

ويبدو أن عامل الخوف هو سبب كل المشاكل التى تعانيها هذه البلاد . فللرجل الأبيض مستوى خاص فى الحياة ، وله مركزه الخاص ، ويبغى الأمن والطمأنينة والعيش الرغد ؛ ولكنه ، من ناحية العدد ، أقل من ربع السكان . وذلك ، فى ظنه ، قد يغرى الأكثرية به . فدعاه عامل الخوف من أن تستأصل شأفته من البلاد ، أو من أن ينحط مستواه فيها إلى مستوى الرجل الوطنى ، أو من كليهما ، إلى أن يشرع من القوانين ما يراه كفيلا بابقائه فى المستوى الذى يريده ، ويحفظ عليه سيادته .

وهذا العامل نفسه - عامل الخوف - هو المسيطر على عقل الوطنى والبادى فى تصرفه . وأقل مظهر لذلك هو حوادث الاعتداء التى تقع على بعض الأوربيين من غير أن يبدو لها ما يبررها من ثأر شخصى قديم أو طمع فى غنم مادى . فهى مظهر فقط لحقد نفسى أو لخوف دائم . فكأنه يقول هاجمه قبل أن يهاجمك .

وليس الهنود أو غيرهم أحسن حالا أو أسوأ حالا فى نظر الوطنى من الأوربى . فهو ، على أخف التعابير ، يخشى الجميع ويخافهم . وليس الهندى محبوباً من الأوربى كذلك ، لأنه مزاحم قوى فى الأسواق التجارية ، فيتجر ، كما يقولون علنا فى مجلس النواب ، من الداخل ومن الخارج ، ولأنه هو الذى أثار حفيظة العالم الخارجى ضد القوانين المميزة بين الأجناس هناك .

فعامل الوحدة الذى هو أساس كيان الجماعة وسر بقائها مفقود هناك . والمزاحمة المشروعة فى الأسواق مفقودة هناك . والمساواة فى الفرص بين الجماعات مفقودة هناك أيضاً ، لأن الرجل الأبيض هو كل شىء ، وهو الانسان فى هذه البلاد ، وهو القمين بالاعتبار ، وأما غيره فكأنه لا يذكر إلا ليخضع للقانون ، أو لتجبى منه الضرائب ، وحسبه ذلك .

ولا يخفى الرجل الأبيض قلقه وخوفه من المستقبل . فالوطنيون فى ازدياد مطرد ، وكذا الأسيويون . أما الأبيض ففى نقصان ، أوهبه يحتفظ ، على خير التقادير ، بعدده الحاضر ، غير أن ذلك لا يحفظ له نسبته المئوية بين السكان ، فهذه فى نقصان . ولقد بدأ التفكير جديا فى أن تسمح حكومة الاتحاد بأن يهاجر إليه ثلاثة ملايين أو أربعة من الأوربيين ، وبذلك يضمنون قوة ومنعه ضد باقى السكان . وحينئذ ، كما يقولون ، يتمكنون من تخفيف القيود المفروضة على غير الأوربيين من السكان . ولكن من أن يأتى هذا العدد ؟ وهنا يبدأ الخلاف بين الأوربيين أنفسهم . فالعنصر الانكليزى فى الاتحاد يفضل أن يسمح بالهجرة

لأكبر عدد ممكن من الانـكليز ، بينما يفضل غيره أن يكون الجزء الأكبر منهم من أوربا . وهكذا يوجد الخلاف بين هذين العنصرين أيضاً فى كثير من المسائل ، وإن كانوا يتفقون جميعاً على وجوب تقوية العنصر الأوربى على حساب غـيره من العناصر .

وأود هنا أن أسجل ظاهرة استرعت انتباهى فترة طويلة من الزمن : هى مقارنة بين الرجل الأسود فى أفريقيا الشرقية ونظيره فى أفريقيا الجنوبية . يلقاك الرجل الأول ، حين تمر به قريباً من كوخه أو حقله أو حيث يلقاك ، بابتسامة عريضة وببشر وترحاب تبدو فى ملامح وجهه وفى اشاراته ؛ ويلقاك الأخير ، إذا اهتم بك ، بوجه عابس وبنظرات مخيفة تملأك رعباً وخوفا . فما سبب هذه المفارقة ؟

إذا قبلنا نظرية الرجل الأبيض ، وسلمنا أن زنوج أفريقيا الجنوبية نزحوا من أواسط أفريقيا ، وجدنا أنفسنا مضطرين إلى أن نتساءل ما الذى جعل زنوج هذه البلاد عابسين على خلاف اخوانهم الآخرين الذين يقاسون من شظف العيش وخشونة الحياة وشدة القيظ ما لا يحس به هؤلاء ؟ أو ليس لنا الحق أن نفترض ، ان صحت نظرية النزوح ، ان القوانين الصارمة ، التى جعلتهم عبيداً أو أشباه العبيد ، يخضعون من غير أن تكون لهم حقوق يتمتعون بهـا ، هى التى ربت عندهم هـذا الوضع المغيظ المحنق ؟ تلك فرضية تستحق كثيراً من البحث والاعتبار .

ذلك كله كما قلت نتيجة لعامل الخوف والشعور بأن المستقبل غير مضمون أو مؤكد ، وأن البيئة لا تعطف أو لا يعنيها أمر هؤلاء أو هؤلاء . وفى اليوم الذى تزول فيه تلك المخاوف توجد الطمأنينة ويوجد الاستقرار .

ونرجو أن يوفق القائمون بالأمر إلى وجود حل يؤدى إلى تلك الغاية ، ويرضى فى الوقت نفسه المعانى الإنسانية دون الاعتبارات الشخصية أو الرغبات الطائفية .

ويسرنى ، قبل أن أختم هذا الفصل ، أن أقرر أننى لم ألق عنتا فى هذه البلاد ، ولم أقاس من هذا الوضع فى قليل أو كثير . فقد قابلنى الرجل الأبيض بالترحيب فى كل مكان فى بلاد الاتحاد : فى المطار وفى الطائرة والقطار ، وفى إدارة الجمارك والجوازات ، وفى إدارة البوليس ، وفى كل مكان حللت به . ونزلت فى أرقى فنادق البلد التى لا ينزلها إلا أعيان البلاد من الأوربيين وكبار السائحين من أوروبا وأمريكا ، فلم أر فيها ما ينم عن معاملة خاصة أو نظرة خاصة تنبىء بأنى أقل من أى واحـــد من النزلاء . بل بالعكس كنت ، بعد أن عرفت بعض أعيانهم هناك ، عضواً بارزاً ، يفتقد حين يغيب ، فى أحاديث كانت تدار أحيانا حول الإصلاح الاجتماعى فى العالم وفى أقطاره المختلفة ، وحول ما ينبغى أن تكون عليه العلاقات بين مصر واتحاد أفريقيا الجنوبيـة . وهناك التقيت بعدد غير قليل من رجال السياسة والاقتصاد ، وسرنى أن أسمع منهم ثناء مستطابا على مصر وعلى حسن ضيافتها ومدى تقدمها فى الأيام الأخيرة .

وزرت جامعة الكاب ، فلقيت ترحيباً كريماً من الأساتذة والإدارة - وكلهم من البيض طبعاً . وقضيت فترة طويلة مع أستاذ علم النفس ومساعديه ، وزرت معامل علم النفس هناك . وزرت قسم الفلسفة وقسم علم الأخلاق ، وتبادلت حديثاً طويلا ممتعاً مع الأستاذين . وقابلت عدداً كبيراً من الأساتذة ، وزرت المكتبة ومساكن الطلاب ومطاعمهم وغرف الدراسة والمحاضرات العامة . وكنت ألقى من الترحيب ما يلقاه الزميل من زميله ، أو ما كان يلقاه أى أستاذ أوربى يزور الجامعة . وكذلك كان الشأن فى زيارتى لجامعة الناتال وجامعة الترنسفال وكل معاهد التعليم الأوربية .

وقابلت كثيرا من رجال وزارة المعارف والمشتغلين بالتعليم ، وقابلت المدير الأعلى للتعليم بمنطقة الكاب ، فوجدت منه ، كما وجدت من غيره ، استعدادا تاما

للتعاون ؛ وكانوا جميعا يستقبلوننى كزميل زائر . وسأشير فى فصل خاص إلى الوعد الكريم الذى وعد به مدير التعليم فى ولاية الكاب . كذلك لقيت ترحيبا وسعة صدر من الجرائد الأوربية . فجاء أحد محررى جريدة « الكاب تايمز » — وهى أكبر الجرائد الأوربية هناك — وأخذ منى حديثا عن مهمتى فى الاتحاد وعن طرف من حياتى الشخصية ، ثم تتبع خطواتى كلها ، ونشر عنها الكثير . وطلب منى فى النهاية أن أكتب مقالا عن « مركز المرأة فى الإسلام » ، فأعطيته هذا المقال ونشره فى حينه .

لذلك لايسعنى إلا أن أتقدم بجزيل الشكر لكل هؤلاء على الحفاوة والاهتمام والمعونة التى قدموها لى فى مناسبات مختلفة .

ولم تصادفنى فى هذا الصدد إلا مشكلة واحدة : هى أين ألتقى بالمسلمين ؟ إن القانون لا يسمح لهم بدخول الفنادق التى كنت أنزل فيها ، فأين نلتقى إذن ؟ ولكن تبين بعدذلك أنها مشكلة سطحية ، فبيوت الله فسيحة . فكنا نلتقى فى المساجد أو فى المدارس والكتاتيب أو فى بعض دور السينما التى يملكها المسلمون . ولقد فتح لى حضرة الأستاذ عبد المجيد صالح قنصل مصر العام فى مدينة الكاب باب القنصلية على مصراعيه ، فكنت أقابل المسلمين هناك أيام أن كنت فى مدينة الكاب . لذلك لم تكن لهذه المشكلة قيمة فعلية .

الأديان هناك

تتعدد الأديان فى تلك البلاد بتعدد الطوائف المختلفة : فهناك الأديان البدائية التى تعتنقها القبائل المتعددة من الزنوج ، وهناك البوذية والبرهمية وغيرهما من الأديان التى يعتنقها الصينيون واليابانيون والهنود ، وهناك اليهودية والمسيحية والإسلام . وأديان الرجل الأبيض هناك هى اليهودية لليهود ، ويقارب عددهم

مائة وخمسين ألفا ، والمسيحية لسائر الأوربيين . ويعتنق جمهور هؤلاء المذهب البروتستانتى ، وإن كانوا ينتمون إلى كنائس شتى . بيد أن الغلبة للكنيسة الهولاندية وتليها الكنيسة الانجليكانية .

وعلى الرغم من أن للكنيسة دعاية قوية بين الزنوج فإنها لا تسمح للزنجى ، حين يقبل المسيحية دينا ، أن ينتسب إلى كنيسة الرجل الأبيض أويدخلها . بل تعد له كنيسة خاصة ومقبرة خاصة . والكنيسة نفسها شديدة الملاحظة لقوانين التميز بين الأجناس ، وكثيرة الحساسية بالنسبة لها . ويقال انها تعلم ، فيما تعلم ، أن هذا التميز طبيعى ودينى لأنه وفق إرادة الله ، وسيكون للأبيض من المسيحيين مكان خاص به فى الجنة يوم القيامة وللزنجى منهم مكان آخر فيها . ويروون فى ذلك قصصا وحكايات .

هذا وللكنيسة المصرية ممثلون فى هذه البلاد أيضا ، ولهم نشاط كذلك . ولكن لم تصلنى معلومات وافية عن مدى هذا النشاط ومدى نجاحهم فيه .

وهناك الإسلام بارزا بمساجده فى كل مكان ، ما عدا ولاية البرتقال الحرة ، فلا يوجد فيها أحد من المسلمين ، ويقال ان فيها نفراً منهم ، ولكنه لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ؛ ولم يمكنى ضيق الوقت من زيارتها ، كما أننى لم أر ضرورة لذلك .

والمسلمون منتشرون فى كل مكان من الولايات الأخرى ، ولا يتركزون إلا فى ولاية الكاب حيث يوجد منهم ستون ألفاً أو ما يزيد على ذلك .

التعليم

التعليم هناك إجبارى بالنسبة للأبيض حتى السادسة عشرة ، ولا إجبار فى

التعليم بالنسبة لغيره . وللأبيض مدارسه الخاصة ، ومعاهده الخاصة ، وكلياته الخاصة ، وجامعته الخاصة . وتسمح جامعة الكاب فحسب لعدد ضئيل من غير الأوربيين بالانتساب إليها ، ولا يسمح غيرها بهذا الاختلاط .

وأما غير الأوربيين فلا تسنح فرصة التعليم الابتدائى أو الأولى إلا لقليل منهم ؛ وأما الثانوى فقد تسنح به الفرصة للمحظوظين من هذا القليل ؛ وأما العالى فلا يتطلع إليه إلا من واتاه حظ عظيم .

المسلمون فى الاتحاد

يمكن تقسيم المسلمين فى بلاد الاتحاد ، بحسب أصلهم التاريخى ، وهو شىء يتمسكون به من سوء الطالع حتى اليوم ، ويعتزون به ، ويظهر منهم فى مناسبات عديدة ، وتعتبره الحكومة كذلك ـ يمكن تقسيمهم قسمين : الملايويين والهنود :

أما الأوائل فيرجع تاريخهم فى البلاد إلى قرنين ونصف قرن من الزمان تقريباً ، إلى عام ١٦٩٤ حين نفى الشيخ على يوسف وأربعون معه من جزر الملايو إلى أفريقيا الجنوبية . فقد كان الشيخ على هذا من كبار المجاهدين الذين حاربوا الاستعمار الهولاندى فى جاوة أمدا طويلا . ولما هزم أخيراً فى تلك المعارك نفاه الهولانديون ونفوا معه فريقا من أتباعه إلى تلك البلاد : إلى منطقة الكاب بنوع خاص . ومن هؤلاء وممن هاجر بعد ذلك من بلاد جاوه تتكون الجالية الإسلامية فى إتحاد أفريقيا الجنوبية المعروفة الآن «بجالية الملايو» . وكلهم مسلمون على المذهب السنى .

ولعل طول مكثهم بهذه البلاد ونسيانهم لغتهم الأصلية ، وربطهم ، بالتالى مصيرهم بمصير هذه البلاد ، أكسبهم بعض الصفات التى جعلت الحكومة تبدو أكثر ميلا نحوهم من غيرهم ، وتعطيهم بعض الحقوق التى قد تنكرها لغيرهم .

وقد خلد أحد الهنود أخيرا ذكر الشيخ على يوسف هذا فبنى له ضريحا على ربوة فى ولاية الكاب تبعد عن المدينة بنحو ثلاثين ميلا . ويوجد بجوار هذا الضريح مقابر لبعض أتباعه الذين نفوا معه ، ولبعض المسلمين فى العصور الحاضرة ممن كانوا يقطنون قريباً من هذا المكان . ويعتبر ضريحه مزاراً يتبرك به المسلمون

هناك ، ويتحدثون عن كثير من كرامات الشيخ . وقد زرته وزرت القرية المجاورة له ، وصلينا العصر بجواره .

ويبلغ عدد أفراد هذه الجالية ستين ألفاً يقيمون كلهم تقريباً فى ولاية الكاب . ويقيم عدد قليل منهم فى مدينة جوها نزبورج من أعمال ولاية الترنسفال . غير أنه يقال ان هذا العدد سينقص حين ينفذ القانون الجديد وتحدد الأجناس المختلفة لتحديد مناطق إقامة لها . لأن كثيراً من مسلمى الهند كان قد نسب نفسه فى الماضى للجالية الملايوية لينتفع بما كانت تتمتع به من مزايا إجتماعية . هذا النوع من الناس سيرجعه القانون الجديد إلى أصله الهندى . ولكن الملايويين لا يوافقون على هذا القول فى جملته ويرون أن النقص ، ان صح ، سوف لا يكون شيئاً يذكر .

وسواء أنقص عددهم الحاضر نتيجة لتنفيذ القانون الجديد أم لم ينقص ، فإن تركزهم فى ولاية واحدة من ناحية ، وعدم مشاغبتهم للحكومة وعدم ظهور جرائم فيما بينهم وعدم مزاحمتهم للرجل الأبيض مزاحمة جدية من ناحية أخرى - كل هذا مع طول مكثهم فى البلاد ، أكسبهم شيئاً من القوة ، وجعل الحكومة ، فيما يشاع ، تنظر إليهم بعين العطف أكثر من نظرها لأمثالهم من الملونين والآسيويين .

وأما الهنود فيرجع تاريخهم إلى نيف ومائة عام ، حين دعا الأوربيون ، وخاصة الانجليز منهم ، الهنود إلى الهجرة ، ليكونوا لهم عونا فى السياسة والاقتصاد ، وتعمير الأرض واستعمار البلاد ، فاستجاب لتلك الدعوة عدد غير قليل منهم ، وظلوا يفدون إلى تلك البلاد زمناً طويلا إلى أن رأت السلطات أخيراً وقف الهجرة ، وفرضت على المقيم منهم كثيراً من القيود ، لتحد من نشاطه فى الأسواق التجارية . لأنهم أظهروا من الجلد والصبر ومن الكفاية والنشاط ما جعلهم مزاحمين أقوياء للرجل الأبيض فى التجارة بنوع خاص ، حتى أصبح عدد كبير منهم يملك ثروات

طائلة تعد بالملايين من الجنيهات ، ولا يزالون يتقدمون بخطى ثابتة فى هذا المضمار ، على الرغم من القيود الصارمة والعراقيل الكثيرة التى توضع فى طريقهم .

وتبلغ الجالية الهندية ربع المليون من النفوس ، ولكن المسلمين منهم يتراوحون بين خمسين ألفا وستين ألفا . يسكن منهم ما يزيد على ستة آلاف فى منطقة الكاب ، والباقى منهم يقيم فى الترنسفال والناتال . وكان يسرنى أن أرى بعض المساجد المتناثرة على طول الطريق الذى يصل بين جوها نزبورج ودربان ، فلا تكاد تخلو قرية على طول هذا الطريق من جالية إسلامية هندية .

ولا يوجد هناك من المسلمين غير هاتين الجاليتين ، اللهم إلا أفراداً قلائل يعدون على الأصابع من لبنان وسوريا وتركيا ، وبضعة أشخاص من الجنس الأبيض أسلموا حديثاً بدوافع نفسية . غير أنهم يخفون إسلامهم عن الجماهير رغبة منهم فى الاحتفاظ بمراكزهم الاجتماعية والاقتصادية ، إلا شخصاً واحداً من أعرق أسرة هولاندية تقيم هناك - أسرة « بوثا » ذات التاريخ الطويل هناك فى السياسة والإدارة والحروب والاقتصاد . فقد أعلن إسلامه للجميع واختلف مع أسرته وزوجه لهذا السبب . وقد قابلته مراراً : زارنى فى الفندق الذى كنت أنزل فيه وزرته فى بيته كذلك . وكان فى حاجة ماسة لمثل هذه المقابلات لتصحيح الكثير من معتقداته . وهناك بضعة أفراد من الملونين ومن الوطنيين اعتنقوا الإسلام حديثاً بوازع نفسى كذلك . ولكنهم جميعاً أفراد لا يكونون وحدة منسجمة .

فالتحدث عن المسلمين ، إذن ، ينحصر فى التحدث عن هاتين الجاليتين - جالية الملايو والجالية الهندية . لذلك نقصر الحديث عليهما .

مركز المسلمين فى البلاد

يكتسب المسلم بالإسلام نوعاً من الخلق الكريم الذى يجعله يترفع عن كثير

من الدنايا والصغائر التى قد يرتكبها أمثاله من غير دينه ، ويجعله يعتز بشخصيته وبكرامته فلا يعرضهما للامتهان ، وذلك يكسبه نوعا من الاحترام والتقدير فى البيئة التى يحل بها ، واصرار المسلم على أن يقيم شعائره الدينية علنا ، على الرغم من كل العوائق التى تقف فى سبيله ، يجعل الرجل الأجنبى ينظر إليه وإلى دينه بكثير من الاحترام . فالإسلام للمسلم ثقافة وخلق بالاضافة إلى أنه دين ، ومن ثم كان أكثر نفعاً للمجتمع ، وخضوعا للنظم ، من غيره .

ذلك هو شأن المسلمين فى أفريقيا الجنوبيـــة . فهم شديدو التمسك بدينهم ، وبما يتصل به اتصالا قريبا أو بعيدا ؛ وهم ، لذلك ، وعلى الرغم من عدم تثقفهم بالثقافات المدرسية والجامعية أقل السكان ارتكابا للجرائم ومخالفة للقوانين مهما بدت مجافية للعدل والصواب . وهم أكثر السكان تمسكا بالفضائل الإنسانية التى لم تدنس المدنيات الحديثة طهرها . فلا عجب إذن أن نرى الرجل الأوربى ينظر إليهم بكثير من الاحترام والتقدير ، وإن كان ذلك مشوبا بشىء من الخوف ـ خوف أن يصبح الإسلام هناك قوة تطغى على المسيحية دين الحاكمين ، ولم يخف أحد القادة هناك قلقه وخوفه من انتشار الإسلام بين الوطنيين ، لأنه يكسبهم قوة نفسية فوق قوتهم العددية . فماذا يكون مصير المسيحية يومئذ ؟ تلك هى مخاوفه ، التى بددتها حين خبرت بها ، فى محاضرة عامة أعلنت فيها أن الإسلام أمن وسلام للمسلم ولغيره على السواء ، وأن دولته تعطى غير المسلمين فيها كل ما للمسلمين من حقوق وما عليهم من تبعات .

وعلى الرغم من ذلك الاحترام الذى اكتسبه المسلم بخلقه وشخصه ، فمجال الحياة أمامه ضيق ، بل أكثر ضيقا من المجال المفتوح لنظرائه من المسيحيين . فمدارس الحكومة لغير الأوربيين لا تقبل من أبناء المسلمين إلا القليل ، وتفضل ، ما دامت إداراتها مسيحية ، أبناء المسيحيين حين يضيق المكان . ومدارس الكنيسة ـ وهى

كثيرة ، ومنتشرة فى كل أنحاء البلاد ، وتعينها الحكومة بسخاء - يصدف المسلمون عنها ، لنزعتها التبشيرية ، وتفضل هى غيرهم عند ما يوجد مجال المفاضلة .

ومجال العمل الحر أمامهم ضيق كذلك ، لأن المسيحى الملوّن مفضل عليهم فى كل شىء حتى فى الحرف الدنيا التى ينفتح بابها أمامهم . ولا يسمح لهم ، كغيرهم من غير الأوربيين ، أن يتملكوا شيئاً من الحقول والمزارع ، أو أن يساهموا فى المناجم والمصانع ، فليس أمامهم إلا بعض الحرف التى لا يحسنها غيرهم ، وإلا التجارة فى مجال ضيق . فهم فى جملتهم فقراء . لذلك لا تكاد تجد بين أهل الملايو - وهم ستون ألفاً - من يقال عنه انه غنى أو قريب من ذلك . ويحترفون إلا قليلا منهم حرفة البناء وأعمال الحياكة وتجارة الخضر والفواكه ، كما يحترف قليل منهم أعمال البقالة وتجارة الأقمشة والخردوات . وجمهور المسلمين من الهنود فقراء كذلك ، وإن كان يوجد من بينهم من يملك ثروات طائلة ، غير أنه عدد قليل . ولكن هل تسمح الظروف لمثل هذا العدد القليل أن يحتفظ بثرائه طويلا ؟ ذلك ما ستبينه الأيام القريبة .

وليس مركزهم السياسى أو الاجتماعى خيراً من ذلك . فليس لواحد منهم حق الانتخاب إلا فى المجالس البلدية فى منطقة الكاب ، كما أشرت آنفا ، وقد علمت أن هذا الحق سيزول قريباً . ولا يتيسر لأحدهم أن يخرج ويرفع صوته أمام الرأى العالمى متذمراً من سوء الوضع الذى وضعتهم الحكومة فيه . وليس لهم ، بالجملة ، أى حق سوى ما يتفضل به الحاكم الأوربى ؛ وكلها منح تعطى ، ثم تسترد ، كلما رغب الحاكم .

وأما مساكنهم ففى الأحياء المتواضعة على وجه عام ، وفى الأماكن التى لا يرضى بها فقراء الأوربيين هناك . ويسكن كثير من مسلمى « دربان » فى منازل فخمة وفى أحياء راقية . ولكن هل سيظلون فيها ؟ وكيف يظلون فيها وسيف القانون

الجديد - قانون تحديد مناطق لسكنى الأجناس المختلفة - مصلت على رقابهم وسينفذ قريباً ؟

ارتباط المسلمين فيما بينهم

لاشك أن الإسلام يوجد بين المسلمين رابطة من الشعور بالأخوة التى لاتجد لها نظيراً فى أية بيئة أخرى . وهذا القدر موجود بين المسلمين هناك ، ويعبر عن نفسه فى كل المناسبات . ولكن ، على الرغم من أنهم جميعا ، إلا فى حالات قليلة ، من أهل السنة ، ولا يجد الواحد منهم حرجا فى أن يصلى فى مسجد الآخر ، فلا يزالون يتحدثون عن مساجد لأهل الملايو ومساجد للهنود . وتلك ظاهرة حاربتها كثيراً راجيا أن تسمى كلها بيوت الله ، وتعامل على هذا الأساس . وسأشير إلى هذا الموضوع فى فصل خاص . ولا يزال المسلم الهندى يتحدث عن أنه هندى ، ويتمسك بتلك الناحية شديد التمسك : فيصر على أن يعلم ابنه ، بجوار لغات البلاد ، اللغة الأوردوية أو الكوجوراتية ، أو أى لغة أخرى من اللغات التى تتكلمها المقاطعة الهندية التى نزح منها . وأما أهل الملايو فلا يتعلمون إلا لغات البلاد : الانكليزية والأفريكانية . أفليس فى هذا ما يشعر بأنه قد لا يكون هينا أن يوجد النوعان من الطلاب فى مدرسة واحدة ؟ كذلك بلغنى أن التزاوج بين الفريقين قليل ونادر ، وأن الهنود كانوا يرسلون أبناءهم إلى الهند ليتلقوا هناك ما يريدون من دراسات دينية ؛ وأما الآخرون فكانوا يرسلون أبناءهم إلى مكة . وبذا اختلفت لغة التعليم ولغة الخطابة والوعظ والارشاد : فكانت ، ولا تزال اللغة الأوردوية أو غيرها من لغات الهند ، بالنسبة للأول والأفريكانية بالنسبة للثانى . ولا شك أن الظروف التى وقعوا تحتها مسئولة إلى حد كبير عن ذلك النوع من التفرق والاختلاف .

وهناك ظاهرة غريبة تستدعى الملاحظة والاعتبار : هى كثرة الجمعيات الدينية وغيرها بين الملايويين ، وانعدامها أو شبه انعدامها بين الهنود : فيوجد فى ولاية الكاب ما يقرب من مائة جمعية للملايويين ، ولم أر واحدة هناك للهنود ، ولم أر فى الترنسفال إلا جمعية واحدة سياسية ، وكذلك فى الناتال . فما هو السر فى حرص الاولين على أن يكون عملهم جمعيا دون الآخرين ؟

غير أنه يسرنى أن أقول ان روح التعاطف والتراحم والتعاون سائدة بين الجميع على وجه عام .

القضاء

يخضع المسلمون فى المسائل المدنية والجنائية خضوعا كليا إلى قضاء البلاد الاوربى وإلى قوانينها المستمدة من القانون الرومانى الهولاندى ، ولكن مشكلتهم تبدو واضحة جلية فى مسائل الأحوال الشخصية ، لان الحكومة لا تعترف بتشريع غير تشريعها ، ولا تقبل ما يترتب عليه من نتائج أو مسئوليات . فلا تعترف بالشريعة الاسلامية ، ولا تعترف بما يترتب عليها من حقوق بين المسلمين بعضهم ببعض . فكل زواج يتم على أى أسلوب لا يرتضيه القانون المدنى أو الكنسى يعتبر زواجا باطلا فى نظر القانون . وعلى هذا الاساس ، يكون كل زواج يتم على أيدى علماء المسلمين هناك زواجا باطلا فى نظر القانون لا تترتب عليه النتائج التى تترتب على الزواج الصحيح . فالأولاد الذين يأتون نتيجة لمثل هذا الزواج ينسبهم القانون للأمهات دون الآباء ، ولا يتوارثون مع الآباء ، ولا يجب أن ينفق الواحد منهم على الآخر . وإذا مات مثل هذا الزوج أو الزوجة يعامل المتوفى منهما ، فيما يتعلق بضريبة التركات ، معاملة الأعزب لا المتزوج . كذلك لا تقبل المحاكم النظر فى قضايا الزواج الذى لا يعترف به القانون . فإذا اعترف به ، وقبلت المحاكم

الفصل فيه فصلت فيه على مبادىء القوانين المسيحية دون الإسلامية ، ولو كان المتقاضيان مسلمين .

هذا ولجعل الزواج مقبولا فى نظر القانون يجب أن يلجأ المسلم إلى أحد طريقين :

١ — يذهب الزوجان إلى واحد من الموثقين الرسميين ، ويطلبان منه تسجيل عقد زواجهما الذى يكون قد تم على يد بعض العلماء ، ويدفعان من الرسوم ما يساوى خمسة جنيهات .

٢ — أو يذهبان إلى إحدى الكنائس لعقد العقد ثانياً ، فيتم العقد طبقاً لتعاليم الكنيسة ، ويدفعان من الرسوم ما يساوى خمسة وعشرين قرشا فقط . غير أن الكنيسة لا تتبع فى عقود زواج المسلمين الاحتفالات الكنسية التى تتبعها مع المسيحيين .

من ذلك يتبين أنه ينبغى على طالبى الزواج من المسلمين أن يلجأوا إلى أحد الطريقين بعد عقد العقد ليكون العقد مشروعا فى نظر القانون . ومن ذلك يتبين أيضا مدى المغريات التى توضع بجانب الكنيسة ليذهب إليها الناس . فمن ذا الذى يذهب إلى الموثق ليدفع خمسة جنيهات ، إذا كان سيصل إلى النتيجة نفسها بذهابه إلى الكنيسة ودفعه خمسة وعشرين قرشا ؟

ولكن المسلمين ، على الرغم من كل ذلك ، يفضلون الأسلوب الأول ويرفضون الذهاب إلى الكنيسة ، لأن الزواج ، حين يتم فيها ، يجعل الزوجين خاضعين إلى الأبد ، فى كل ما يتعلق بالزواج ، إلى قوانين الكنيسة فى الطلاق والفرقة والنفقات والزواج الثانى الخ . وقد يذهب فريق من فقراء المسلمين إلى الكنيسة بعد عقد العقد ، ولكن هل يلتزمون بعد ذلك بما تفرضه عليهم الكنيسة من قوانين ؟ . لا أدرى .

تلك ظاهرة — يؤسفنى أن أقول — لا تدل على شيء من التسامح الدينى ، ولا ينبغى أن تسمح بها أمة متحضرة . بل كان ينبغى أن تعترف بعقائد المواطنين على الأقل فيما يختص بأحوالهم الشخصية . وذلك أدنى مظاهر التسامح وسعة الصدر .

ويقال ، والعهدة على الراوى ، وهو أحد الأوربيين هناك ، ان الحكومة رأت فى يوم من الأيام أن تعين بعض أئمة المسلمين للقيام بمراسم الزواج طبقاً لتعاليم الشريعة الإسلامية ولما يتطلبه قانون البلاد من شكليات . وبذلك يصبح الزواج شرعياً ومقبولا من ناحية القانون من غير حاجة إلى الالتجاء مرة أخرى إلى الكنيسة أو المسجل . فتردد العلماء أولا ، ثم قبلوا الفكرة أخيراً ، ولكنهم أجمعوا على الاعتذار فى النهاية . وذلك لما كان يتطلبه العمل من إجراءات شكلية ومن مسئوليات تؤدى مخالفتها إلى السجن . وقد سجن أحدهم بالفعل لذلك الإهمال ، وبذلك رجع الحال إلى وضعه الأول .

ويوجد هناك بين المسلمين ما يسمى بالمجلس القضائى . وهو مكون من الأئمة ومن الذين لهم إلمام بمسائل الشريعة الإسلامية فى الولايات المختلفة . وهو ليس معيناً ولا معترفا به من جانب الحكومة . ولكنه مجلس عرفى عين نفسه ليفصل ، أو ليفرض نفسه للفصل العرفى فى مسائل الخلاف بين الزوجين . ويتمتع أفراده بكثير من الاحترام وقوة النفوذ فى بيئاتهم المختلفة ، لأنهم رجال دين ، ولأنهم المتفقهون فى البلاد ، لا لأنهم رجال قضاء . ولا يخفى بعض المثقفين تذمره من هذا المجلس على وجه عام لأسباب يذكرها .

المساجد

المساجد فى هذه البلاد كثيرة ، ومنتشرة فى جميع أنحاء البلاد ، وموجودة

كلما وجدت جالية إسلامية ، لكنها مع كثرتها لا تفى بحاجة المسلمين ، لأنها كلها من نوع الزوايا الصغيرة لا المساجد الكبيرة ، إلا مسجد الجمعة فى « دربان » ، فإنه يتسع لما يقرب من أربعة آلاف من الأشخاص . ولا يتناسب الكثير منها مع حالة البلد من الرقى وجودة البناء .

وتتوقف حالة هذه المساجد ، فى النظافة والخدمة وروعة البناء ، على مركز الجالية التى تتعهدها . فالمساجد التى تتعهدها الجالية الملايوية قديمة ، وتبدو عليها الحاجة ، وليست لها حبوس خاصة ، ويتعهدها الإمام بنفسه . ولذلك ارتبطت به كل الارتباط . ويتوقف مدى صلاحية المسجد على نشاط الإمام ومدى نفوذه فى بيئته . وليس له أو لخدم هذه المساجد رواتب معلومة ، فعليهم أن يعيشوا من أعمالهم الخاصة ، أو بما يجود به أفراد الجالية فى المناسبات المختلفة .

وأما المساجد التى تتعهدها الجالية الهندية فخير من ذلك فى جملتها . لأن لبعضها حبوساً خاصة تدر من الريع ما يزيد على حاجتها . ولأئمتها وخدمها رواتب ثابتة يتقاضونها كل شهر تصل فى بعض الأحيان إلى خمسة وعشرين جنيها فى الشهر بالنسبة للإمام . وتنفق الجالية الهندية بسخاء على المساجد ، لأن حالتها المالية تسمح بذلك . ويوجد فى بعض هذه المساجد ماء حار فى فصل الشتاء بجانب الماء البارد ، كما أن كثيراً منها يفرش بالبسط . ولقد رأيتهم يقدمون فى شهر رمضان الحلوى والحساء فى المساجد ليفطر عليهما الصائمون قبل صلاة المغرب .

والمساجد هناك التى زرت كثيرا منها ، وصليت الجمعة والتراويح فى بعضها ، وحاضرت فى بعض آخر منها هى ، حسب الإحصاء الذى أخبرنى به الثقاة ، ما يلى :

عدد	
٢٧	مسجدا فى منطقة الكاب يتعهد الهنود منها أربعة .
٧	مساجد فى جوهانزبورج يتعهد الملايويون منها واحدا .

عدد

١ مسجد فخم فى بريتوريا يتعهده الهنود .

٦ مساجد فى قرى على الطريق من جوهانز بورج إلى دربان يتعدها الهنود .

١٣ مسجدا فى دربان يتعهدها الهنود .

من ذلك الإحصاء يتبين عدم كفاية هذه المساجد للمسلمين هناك ، وخاصة إذا علمنا أن بعضها أصبح فى وضع لا يسمح عادة بالصلاة فيها . ومع ذلك فلا بد لنا أن نتساءل ما هو مصير هذه المساجد بعد تنفيذ القانون الجديد ؟ هل سيزول كثير منها أو يخرب على مر الأيام لعدم وجود من يتعهده ؟ ذلك ما يخشاه الكثير . فهذه المساجد مبعثرة ومنتشرة فى جميع أنحاء البلاد ، بل فى المدينة الواحدة ؛ والمسافات هناك شاسعة . فماذا سيكون مصيرها عند ما يوضع المسلمون مع غيرهم من جنسهم بعيدا عن بعض هذه المساجد ؟ سوف لا يتمكن كثير من الصلاة فيها بلا مراء لبعد المسافة ، بل قد لا يسمح للمسلمين بالدخول فى مناطقها إذا ما أعلنت مناطق لغير الجالية التى ينتسب إليها المسلمون . ولا شك أن كثيرا من مساجد المسلمين موجود فى المناطق التى ستكون للأوربيين فحسب . فكيف يبقى المسجد قائما مادام لا يوجد من يتعهده أو يصلى فيه ؟ قد تحجم الحكومة حين تنفيذ القانون الجديد عن هدم هذه المساجد . وأكبر الظن أنها ستحجم عن ذلك ، على الأقل لئلا يقال إنها تهدم معابد من يخالفها ، ولكن المصير واحد . فليس هناك فرق بين هدم المكان وعدم تمكين أربابه من الدخول إليه لتعهده وإصلاح شئونه .

وبعد ذلك هل يتأتى لهؤلاء الناس مع فقر الكثير منهم ، ومع القيود الموضوعة عليهم ، أن يبنوا مساجد أخرى أو مساكن أخرى ؟ وهل سيكون عندهم من الشجاعة والثقة فى المستقبل ما يجعلهم يشيدون مساجد أخرى أو مساكن أخرى ؟ وهل هناك ما يضمن أنهم سوف لا ينقلون مرة أخرى فى المستقبل بعد أن تسمح لهم الظروف بتشييد ما يريدون تشييده ؟

تلك مخاوف موجودة فى نفس كل مسلم هناك . ولها ، من سوء الطالع ، ما يبررها من تصرف الحاكمين ومن تشريعاتهم التى لا يبررها غير أنها تشريع القوى ضد الضعيف الأعزل الذى لا يجد حولا ولا قوة .

زرت كثيراً من هذه المساجد ، وحاضرت فيها بعد الصلوات ، وصليت فيها التراويح كذلك . وهم يطيلون فى التراويح إطالة تعتبر مملة فى نظر كثير من المصريين . فهم يحرصون جميعاً وبلا استثناء على أن تصلى التراويح بالقرآن كله على أن يختم فى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان . ويدرب الحفاظ تدريباً كافياً لهذه المهمة . وقد يكون إمام التراويح غير الإمام الراتب المسئول عن المسجد ، لأن الأول ، كما يقولون ، حافظ والثانى عالم . وصليت معهم الجمعة مراراً . ولا تزال خطبة الجمعة عندهم شكلية أكثر منها حقيقية أو روحية ، لأنها تلقى باللغة العربية ، ولا يفهمها أحد . وأشك كثيراً فى مدى فهم بعض الخطباء للغة العربية أيضاً ، لأنى حاولت التفاهم معه بالعربية والإنجليزية فأخفقنا واضطررنا إلى استحضار من يترجم بيننا . وقد سمعت بعض الخطباء يخطب من ديوان قديم لست أدرى متى كتب ، غير أنى فهمت من أسلوبه وموضوعه ولغته أنه لا بد أن يكون قد كتب فى أحلك عصورنا ظلمة . واستمعت كذلك إلى بعض الخطباء الذين كانوا قد درسوا فى الأزهر وإلى بعض الشبان الذين درسوا حديثاً فى مكة فوجدتهم خيراً من غيرهم . وكان بعضهم يخطب من كتاب للمرحوم الشيخ على محفوظ .

وعلمت أن المسلمين فى مدينة الكاب كانوا قد عقدوا العزم على بناء مسجد كبير فى المدينة ليكون مسجداً جامعاً هناك ، وقد ساهمت فيه الحكومة المصرية بخمسمائة وألفين من الجنيهات . ولكن لا يزال هذا المبلغ قائماً على ذمة المسجد لعدم تمكن المسلمين من جمع ما يكفى من المال لبنائه ، مع أنهم فى شديد الحاجة إليه .

التعليم

وهنا نجد مشاكل جمة مترابطة، وآخذاً بعضها بحجز بعض أخذاً يجعل المرء يحار كيف يبدأ فى التحدث عنها، وتصويرها، فضلاعن معالجتها. فالمسلمون ينقصهم التعليم بجميع أنواعه، وفى كل مراحله. فهم فى حاجة ملحة إلى كل مما يسمى عادة بالتعليم الدينى والتعليم المدنى. والمجال فى كليهما ضيق بالنسبة لهم، ويكاد بابه يكون مغلقاً دونهم، لأن الفتحة الضيقة التى قد تسمح بالدخول منها للتعليم المدنى محوطة بكثير من العقبات التى لا يسهل تذليلها. والمقدار الضئيل الهزيل مما يسمونه التعليم الدينى الذى ييسرونه لأبنائهم فى المكاتب والكتاتيب يسير على نحو ممل، وعلى أسلوب بدائى جاف، يجعل الطالب يصدف عنه حين يكره عليه، ويفر منه بقدر المستطاع، وينسى قصدا ما تعلم منه بعد أن يغادر المكتب أو الكتاب.

ولنعطى صورة فيها شىء من الوضوح عن تعليم أبناء المسلمين هناك نرى لزاما علينا أن نشير بشىء من التفصيل إلى المجال المهيء لهم لتثقيف أبنائهم فى دينهم ودنياهم.

التعليم المدنى

هذا النوع من التعليم طائفى، كما أشرت سابقا. فلكل طائفة مدارسها الخاصة التى لاتقبل غير أبناء هذه الطائفة. فمدارس الحكومة للأوربيين لا تقبل غير أبناء الأوربيين فى جميع مراحلها. ومدارس الملونين لايدخلها الأوربيون كذلك بحكم القانون لا بحكم العادة فحسب. أما مدارس الحكومة للملونين ومن فى حكمهم أو المدارس التى تعينها الحكومة ففروض أنها تقبل أبناء غير الأوربيين بقطع النظر عن جنسياتهم وأديانهم. ولكنها لا تقبل، من ناحية عملية، إلا قليلا من أبناء الطائفة التى لا تنتمى إلى طائفة نظارها والقائمين على شئونها، وهذا يعنى أنها لا تقبل من أبناء المسلمين إلا القليل.

وتختلف مناهج التعليم وأساليبه باختلاف الولايات . فلكل ولاية من الولايات الأربع نظامها الخاص ، ومنهجها الخاص وأسلوبها الخاص فى تعليم غير الأوربيين. ولكنها تتفق جميعا فى أنه لا يجبر على التعليم إلا أبناء الأوربيين ، ولا يجبر على تعليم الدين إلا فى مدارس الأوربيين ، وفى أنه لا يسمح لغير الأوربى بالدخول فى مدارس الأوربى .

وما دام التعليم اجباريا بالنسبة للأوروبى فلا بد أن يوجد مكان لكل طفل وطفلة منهم فى المدرسة حتى السادسة عشرة ، وهذا هو الواقع بالنسبة له ، أما غيره فالمجال أمامه ضيق ، وسنتحدث عن المسلم بنوع خاص .

يوجد فى ولاية الكاب اثنتا عشرة مدرسة أولية لأبناء المسلمين ، وهى من المدارس التى تعينها الحكومة ، وما دام كذلك ينبغى عليها أن تقبل من يتقدم إليها من أبناء غير المسلمين ، ويوجد بالفعل فى بعضها أطفال لغير المسلمين . ولكن هذه المدارس كلها لا تتسع لأكثر من حوالى خمسمائة وألفين من الأطفال ، فى حين أنه يوجد بجوار هذا العدد ما يزيد على ستة آلاف منهم فى سن التعليم . فما هو مصيرهم ؟ وأين يذهبون ؟

توجد مدارس أخرى حكومية للملونين ، ولكن إداراتها مسيحية ، وكثيراً ما ترفض أبناء المسلمين بحجة عدم وجود أماكن خالية لهم . وتوجد مدارس الكنيسة أيضا . وهذه كثيرة ، والانتساب إليها سهل ميسور لكل إنسان ما دام سيقبل أن يلقن ابنه أو بنته تعاليم الكنيسة ، لأن التعليم الدينى فيها إجبارى على نحو أوسع مما فى مدارس الحكومة . والطفل الذى لا يسمح له أبواه بحضور دروس الدين يرفض فى العادة . ولهذا يمتنع كثير من الآباء عن إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس، ويفضلون أن يظلوا جاهلين على أن يتعلموا ويصبحوا مسيحيين أو ذوى

ميول مسيحية ، أو أن يرسلوهم إلى نوع من مدارسهم الخاصة يشبه الكتاب القديم فى مصر ، وسأتحدث عنه قريبا .

من ذلك يتبين أن حوالى ٧٠٪ من أبناء المسلمين محرومون من التعليم الأولى ، مع أن ذويهم يساهمون فى بناء الدولة كغيرهم سواء بسواء ، وبعد ذلك ، ما هو مصير هؤلاء الذين أتاحت لهم الظروف أن يمروا فى المرحلة الأولى من التعليم ؟ والجواب أن المجال أمامهم ليس خيراً من سابقه . فليست لهم مدارس خاصة على الاطلاق ، وإذا أراد واحد منهم أن يستمر فى التعليم فعليه أن يطرق أبواب الكنيسة ويحضر دروس الدين ، أو أبواب المدارس الحكومية للملونين ، وهذه قليلة جداً ، وليس الدخول فيها بالأمر الهين .

تلك صورة صادقة لما يوجد فى ولاية الكاب . وليست ولايتا الناتال والترنسفال خيراً من ذلك . اللهم إلا فى وجود مدرسة ثانوية واحدة فى كل ولاية منهما لأبناء الهنود جميعاً مسلمين وغير مسلمين ، والمسلمون لا يزيدون عن خمس مجموع الهنود ، ولكنهما أقل بكثير من ولاية الكاب فى عدد المدارس الأولية التى تعينها الحكومة ، فولاية الكاب أحسن حظاً من غيرها فى هذا السبيل .

وأما التعليم العالى فهو أكثر سوءاً من ذلك كله . فليست لهم كليات خاصة إلا كلية طب بدأت من شهرين فى الناتال للملونين جميعاً ، والدراسة فيها مسائية فحسب . ولا يسمح لهم بدخول جامعة الناتال للأوربيين أو جامعة الترنسفال إلا فى بعض الأقسام ، وعندئذ تكون لهم فصول خاصة محدودة . وأما فى ولاية الكاب فيسمح لعدد قليل من الملونين - ومنهم المسلمون طبعا - بالانتساب لجامعتها . وقد علمت أن المسلمين فيها ستة طلاب فحسب ، كان أحدهم مسيحيا فأسلم حديثا بوازع نفسى . وعلمت أيضا أن كثيراً من الشبان يفضل ، حين يقدر ، أن يكمل تعليمه فى أوروبا ، ليتفادى العقبات وينجو من عقد النقص التى قد تتكون عنده نتيجة لحياة النبذ والعزلة التى يخضع لها فى الجامعة .

كل ذلك يبين فى وضوح مدى النقص فى التعليم بالنسبة لأبناء المسلمين ومدى ما يلقون من عنت فى هذا السبيل ، ولكنى علمت أثناء إقامتى القصيرة هناك أن المسلمين إذا بنوا مدارس ، وقد موها للحكومة ، فإن الحكومة ستعمل من جانبها على إعانة هذه المدارس ، وبذلك ينفتح لهم باب التعليم الأولى . غير أن ذلك غير ميسور دائما للمسلمين . فالجمهور لا يملك ما يبذله ، والأغنياء غير مستعدين دائما للبذل ، وخاصة فى المسائل التى لا يعرفون مصيرها . فالمشكلة ، إذن ، حادة ، ولكنها ليست على كل حال مما يستحيل حله .

التعليم الدينى

هذا النوع من التعليم موجود فى المكاتب والكتاتيب المنتشرة فى أنحاء البلاد ويقوم به العرفاء والفقهاء ومن لهم المام بالدراسات الدينية والعربية ، أو باللغة الأردوية ، وطلاب هذه المكاتب على نوعين : طلاب يذهبون إليها فى الصباح والمساء ، أو المساء فقط حسب ظروف الطلاب أنفسهم ، أو حسب ظروف المكتب والعريف ، وهذا النوع من الطلاب هو الذى لا يجد مكانا فى المدارس النظامية الحكومية ، وآخرون لا يذهبون إليها إلا فى المساء ، وهم الذين أسعدتهم الظروف ، فوجدوا أمكنة فى مدارس الحكومة الأولية ، فيذهبون إلى هذه فى الصباح ويذهبون إلى الأخرى فى المساء بعد الفراغ من الأولى .

ويتعلم الطالب الهندى هناك اللغة الهندية التى يتكلمها أبواه ، وهى اللغة الأردوية فى الغالب ، لتساعده ، كما يقولون ، على تعلم اللغة العربية ، ويحفظ القرآن الكريم كله أو بعضه . وأما الملايوى فلا يتعلم من اللغات بعد اللغات الوطنية إلا مبادىء اللغة العربية . وهو ، فى الحالين ، تعليم عديم الجدوى ، لأن الذى يتعلم الأردوية ليعرف العربية يتعلم الأولى ويتكلمها ، ولا يعرف فى النهاية شيئاً عن الثانية ؛ وكذا الأخير ،

فتراه يردد كلمات من اللغة العربية أيام طفولته لا تفيده شيئاً ثم ينساها بعد ذلك ؛ ولا يعرف العربية منهم إلا من درس فى مصر أو فى مكة ، أو فى بعض بلاد الهند ؛ وهذا الأخير لا يجيد النطق بها .

ويدرس الطالب كذلك مبادىء الدين الإسلامى العملية والاعتقادية ، ولكن بأسلوب بدائى جاف ، يجهد الطالب والمدرس معا ، ويضيع عليهما كثيراً من الوقت من غير جدوى ، وخاصة لأنه لا يوجد بأيديهم شيء من الكتب فى هذا الموضوع ، ولا من أدوات الكتابة . ويحفظون القرآن كذلك . وهم يهتمون بهذا الحفظ اهتماما كبيراً ، ويفاخرون به ، مع أنه كله حفظ بلا وعى ، لأن الحافظ لا يعرف شيئاً من اللغة العربية - لا يتكلمها ولا يكتبها ولا يفهمها ، ولا يفهم شيئاً من القرآن . إلا إذا ترجمت له معانيه إلى اللغة التى يفهمها ؛ ولكنه ، على الرغم من ذلك كله ، حافظ .

وتجد أمام كل مدرس أو عريف فى هذه المكاتب ما لا يقل عن ستين طفلا تتراوح أعمارهم بين الخامسة والخامسة عشرة ، وقد حشروا حشرا فى مكان ضيق لا يصلح عادة للدراسة ، ويظلون هكذا أمام المدرس ساعتين أو ثلاث ساعات كل يوم .

ولقد زرت كثيراً من هذه المكاتب ، فوجدتها غير صالحة فى بنائها وفى مناهجها ، ان صح أن لها مناهج ، وفى أسلوب الدراسة ، وفى كفاية المدرسين ، وفى عددهم ، وفى أجورهم ؛ وهذه هزيلة جداً ، مما جعل الأكفياء منهم يفرون من مهنة التعليم ويحترفون غيرها ، وجعل غيرهم يبحث عن رزق بجانبها . ويتبرع كثير منهم بعمله من غير أن يتقاضى عليه أجراً . ولكن المجهود فى جملته ضائع ، أو يكاد يكون ضائعا . وليست القوة التى تحفظ المسلمين هناك من الزيغ مستمدة من الدارسة الدينية فى المكتب أو الكتاب ، ولكن من الاعتقاد القوى المتوارث

الذى يلقنه الآباء للأبناء ، وليست مبادىء الدين العملية التى يعرفونها ناشئة عن ذلك المصدر وحده أيضاً ، ولكن عن السماع والمشاهدة فى البيت كذلك .

معاهد التربية

وأظن أنه من الواضح الآن أنه لا ينتظر أن يكون للمسلمين معاهد تربية يدربون فيها أبناءهم ليكونوا مدرسين . وهذا هو واقع الأمر . ولكن يوجد من هذا النوع من المعاهد عدد قليل تحت رعاية الكنيسة ، وعدد أقل من هذا العدد تحت رعاية الحكومة . ولكن العدد الذى يمكنه أن يتقدم إليها من المسلمين قليل ، ولا تنفتح الأبواب إلا لقليل من هذا القليل . ولا أرانى فى حاجة للتحدث عن التعليم الجامعى ، فقد سبق أن أشرت إليه ، ولكنى أود أن أذكر هنا باباً يمكن أن ينفتح أمامهم مع قليل من الجهد .

الدراسات العربية فى جامعة الكاب

ولكن ، على الرغم من ذلك كله — من شبه انعدام الدراسات الثانوية بالنسبة للمسلم ، وانعدامها فى اللغة العربية بالنسبة له — فهناك أمل يسمح له بأن ينتسب إلى جامعة الكاب ليتخصص فى اللغة العربية وينال درجة علمية فيها . فقد رصد أحد المسلمين : هو المرحوم سليمان شاه مبلغاً ضخما من المال لينشأ به أو بريعه كرسى للدراسات العربية فى جامعة الكاب . وقد قبلت الجامعة الفكرة ، ولكنها لم تنفذ حتى اليوم لعدم وجود طلاب يحملون شهادة البكالوريا فى اللغة العربية .

ولا شك فى أنه يعتبر كسبا عظيما للمسلمين عامة ، وليس للمسلمين فى اتحاد أفريقيا الجنوبية فحسب ، أن تنشىء جامعة الكاب كرسيا للدراسات العربية والإسلامية فيها . بيد أن إنشاء مثل هذا الكرسى لا يتوقف فى نظر الجامعة على

وجود الأستاذ والمال فحسب ، بل على وجود طلاب يعرفون اللغة العربية ، ويحملون شهادة البكالوريا فيها وفى المواد المدنية الأخرى . وهذا يتوقف بدوره على جعل اللغة العربية لغة أساسية أو إضافية تدرس فى كل من التعليم الابتدائى والثانوى . وذلك يحتاج إلى مجهود كبير من الجالية الإسلامية هناك ومساعدة من الحكومة كذلك . والغريب أنه لم يفكر فى شىء من ذلك من قبل .

تلك هى مشكلة المسلمين هناك على وجه عام . وهى مشكلة عويصة لا تحل فى يوم أو بعض يوم ، ولكنها تحتاج تفكيرا عميقاً وجهودا متضافرة ، وزمناقد يطول وقد يقصر حسب الظروف ، ولكن الخطوة الأولى ينبغى أن تكون من جانبهم ، ومن الله التوفيق بعد ذلك ، وعلينا وعلى العالم الإسلامى أن يساعد بقدر المستطاع إظهاراً للأخوة الإسلامية التى نعتز بها فى كل حين . ولقد اهتديت إلى حل عملى قدمته لهم جميعا فى صورة اقتراح قبلوه بالاجماع ، والخصه فيما يلى :

مقترحات

تلك الحالة التى يرثى لها - من النقص الفاضح فى التعليم فى جميع مراحله وبجميع أنواعه - دعتنى إلى أن أفكر طويلا فى أقوم السبل التى تساعد المسلمين على النهوض بثقافاتهم كلها وعلى وجه عام . فقد تبين أنه من غير الميسور أن نحاول النهوض بتعليمهم الدينى وحده مهملين الجانب الآخر من التعليم ، لأن الكتاتيب الموجودة ، وهى نواة التعليم الدينى والعربى تصعب بل تستحيل مساعدتها فى وضعها الحاضر ، وإذا نظمت وعدلت مناهجها وعين لها المدرسون الأكفاء لاستحال جمع المال الكافى لذلك . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن المسلمين حريصون على أن ينال أبناؤهم أكبر قسط ممكن من التعليم المدنى السائد فى الدولة ، لا ليتمكنوا من العيش فيها فحسب ، بل ، ومن يدرى ما يخبئه المستقبل ؟ لينفتح لأبنائهم مجال العمل فى الحكومة . ولعل ذلك يكون من الأحلام التى تحققها الأيام .

فما هو أيسر السبل ، إذن ، الذى نتمكن من أن نجمع فيه بين الدراسات المدنية والدينية ، ونفشىء به مدارس أولية وثانوية تسد حاجة المسلمين التعليمية ، وتؤهلهم للدراسات الجامعية العامة ، وفى القسم العربى من جامعة الكاب ، أو للدراسات فى جامعة فؤاد الأول مثلا أو فى الأزهر ؟

ذلك هو السؤال الذى ألخص الإجابة عنه فيما يلى :

لاشك أن تفرق كلمة المسلمين هناك وانشغال كل طائفة أو فرد بشئونها أو شئونه الخاصة مسئول إلى حد كبير عن هذا الوضع الذى وجد المسلمون فيه اليوم أنفسهم . فهم اليوم حقا يلجأون للحكومة لتساعدهم فى الناحية التعليمية ، أو لمصر أو لأى بلد إسلامى آخر . ولكن الذين يطلبون المساعدة أفراد قد لا يمثلون إلا أنفسهم أو مجموعة ضئيلة من طائفتهم ، ولذلك لا يستمع إلى ندائهم ولا يلتفت إلى شىء

من التماساتهم . أفليس من الأجدى ، إذن ، أن يتقدم المسلمون كتلة واحدة ، ويحددوا مايريدون ، ثم يطلبون ماعقدوا العزم عليه ؟ وهل من الهين على حكومة ما أن تتجاهل رغبات جالية تزيد عن مائة ألف نسمة ما دامت على قلب رجل واحد ؟ وهل يقدر العالم الإسلامى أن يتجاهل رغبات مثل هذه الجالية ؟ فيجب على المسلمين هناك إذن أن يتكتلوا ويتقدموا كتلة واحدة ذات رأى واحد ما دام الهدف واحدا : هو النهوض بمستواهم التعليمى .

لذلك اقترحت على كل ولاية أن تؤلف من بين جمعياتها وأعيانها وأرباب التفكير فيها مجلسا يسمى « **مجلس التعليم الاسلامى** » تنحصر مهمته فيما يلى :

١ — الاتصال بالحكومة لإيجاد أكبر عدد ممكن من المدارس الأولية والابتدائية التى تسع أبناء المسلمين جميعاً ، وجمع بعض الأموال من المسلمين لهذا الغرض إذا احتاج الأمر إلى ذلك .

٢ — الاتصال بالحكومة لجعل الدين الإسلامى مادة إجبارية تدرس فى هذه المدارس على غرار ما تفعله مدارس الحكومة ومدارس الكنيسة بالنسبة للمسيحية . وبهذا تسنح الفرصة لكل طفل بأن يدرس فى الصباح دراسات دينية ساعتين على الأقل فى الأسبوع الواحد .

٣ — الإبقاء على نظام الكتاتيب المسائية على أن يعاد تنظيمها ؛ ويكتفى فى الوقت الحاضر بأن تجعل الدراسة فيها ساعتين فقط مقسمة على ثلاثة دروس وفسحتين بينهما تفادياً لإرهاق الطلاب . وتدرس فيها عدة مواد بدل مادة واحدة . فتدرس فيها مبادىء اللغة العربية ومبادىء الدين والتاريخ الإسلامى ، ويحفظ فيها شىء من القرآن الكريم .

٤ — قبيل الانتهاء من المرحلة الأولى بدراستيها الصباحية والمسائية سيلاحظ المجلس ، أو من يعينه المجلس ، أن بعض هؤلاء الطلاب أقوى أو أكثر ميلا من

غيرهم نحو الدراسات العربية والإسلامية . هؤلاء يكونون النواة الأولى للدراسات العربية والإسلامية فى المرحلة الثانية من التعليم .

٥ — يركز المجلس اهتماماً خاصاً على هذا العدد من الطلاب ، فيهيى له ، مثلا ، دروساً خاصة فى هذه الدراسات ، أو يسمح له ، بعد إتمام المرحلة الأولى ، بعام إضافى يدرسها فيه فحسب ، ليستطيع متابعتها فى المرحلة الثانية .

٦ — يتصل المجلس بالحكومة لإيجاد أكبر عدد ممكن من المدارس الثانوية للمسلمين أو التى تقبل المسلمين ، ويجمع لذلك ما يقدر أن يجمعه من المال إذا اقتضى الحال ذلك .

٧ — يتقدم المجلس للحكومة ويطلب إليها أن تقبل اللغة العربية فى مدارسها الثانوية وتعتبرها لغة اختيارية فيها يدرسها من يريد من الطلاب ، كما هو الشأن بالنسبة للغات الأوربية من اللاتينية والألمانية والإيطالية وغيرها . وبما أن هذه مسألة هامة قد تستدعى جدلا طويلا ، فقد اتصلت بالرئيس الأعلى للتعليم فى ولاية الكاب ، وشرحت له وجهة نظرى . وبعد أن أجبت على ما أثار من اعتراضات تتعلق بالمنهج والمدرس وفصول الدراسة والامتحان ، وعد بأنه إذا تقدم إليه المسلمون بمثل هذا الطلب ، وكان عندهم من الطلاب الراغبين فى الدراسات العربية ما يكفى على الأقل لفصل واحد ، فإنه سيعمل من جانبه على قبول الفكرة وتنفيذها .

٨ — فإذا تمت الفكرة ، ونال بعض الطلاب شهادة البكالوريا فى اللغة العربية وغيرها ، عمل المجلس من جانبه على تنفيذ فكرة إنشاء كرسى الدراسات العربية فى جامعة الكاب ، فينتسب إليها الطلاب فى هذا القسم أو غيره ، أو يسافرون إلى الأزهر للتخصص فى الدراسات العربية والإسلامية ، أو إلى واحدة من جامعاتنا المصرية لدراسة ما يشاءون من مواد .

وبذلك نكون قد نجحنا فى عدة مسائل أخصها ما يلى :

(ا) إيجاد جيل قوى منهم يجيد اللغة العربية والدراسات الإسلامية وهذا الجيل يمكن أن يستغل ، بعد تخرجه ، استغلالا طيبا فى هذه البلاد.

(ب) المساعدة على إنشاء كرسى للدراسات العربية فى جامعة الكاب . وذلك كسب عظيم ، لأنه يرفع ، على الأقل ، الروح المعنوية للمسلمين هناك .

(ج) تفادينا إرسال الصغار من أطفالهم إلى خارج البلاد.

هذا ، وعلى الرغم من أن الدراسات العربية فى جميع مراحل التعليم ستشمل بلا مراء قدراً كبيراً من الدراسات الإسلامية ، وقد تطغى الأخرى على الأولى فى بعض الأحيان ، غير أنه ينبغى أن تظل محتفظة باسم الدراسات العربية تفاديا لكثير من المشاكل التى قد تثار نتيجة لتسميتها بأى اسم آخر .

كذلك أبديت الرغبة فى أن يكون هدف المجلس تعليميا لا سياسيا خوف أن تعارض فيه الحكومة أو يخفق من أول الأمر ، وأن يكون تعليما دينيا وعربيا ، من غير أن يكون له شأن بالمنهج المدنى الذى ترعاه الحكومة ، بل يخضعون فى هذا الصدد لمناهج الحكومة ، لا لأنهم سيعتمدون عليها ماليا فحسب ، بل لأنهم كذلك فى حاجة ماسة لأن ينسجموا فى هذا السبيل مع الشعب الذى يريدون أن يعيشوا فيه .

ذلك هو الاقتراح العملى الذى وضعته أمامهم ، ويسرنى أن أقول انهم قبلوه بالاجماع وبحماس شديد . وقد كونت ولاية الكاب مجلسها وأنا هناك . وقد أخذت الولايتان الأخريان فى تكوين مجلسيهما . ولكن منعنى ضيق الوقت أن أستمر معهم حتى يتم هذا التكوين .

ولقد ذهبت خطوة أبعد من ذلك ، وقدمت اقتراحا آخر ينفذ بعد الأول . فطلبت إلى المسلمين أن لا يكتفوا بهذه الوحدة الخاصة بالولايات المختلفة ، بل ينبغى أن يفكروا جديا فى أن تجتمع المجالس الثلاثة ـ مجلس الكاب ، ومجلس الناتال ،

ومجلس الترنسفال - وتكون من بينها مجلساً واحداً يسمى « **المجلس العالى للتعليم الاسلامى** » ؛ وتنحصر مهمته فى المشاكل التعليمية لمسلمى الاتحاد على وجه عام ، ولكن فى المرحلة العليا منه فحسب . ويلاحظ أن هذا المجلس سوف لا يلغى المجالس الأخرى ، بل يعمل كل فى دائرته ، كما أن هذه المجالس سوف لا تلغى بدورها ما قد يكون هناك من جمعيات خاصة ، دينية كانت أو سياسية .

وقدمت اقتراحا آخر ليبحثه هذا المجلس العالى حين يكون : هو أن يعمل على تكوين « **معهد للدراسات العليا** » فى مكان من الاتحاد يحدده المجلس : يفد اليه بعض طلاب البكالوريا المتخرجين من القسم العربى فى الدراسات الثانوية ، ومن يجيد العربية من الأقطار المجاورة مثل روديسيا ، والكونغو ، وموزمبيق ، وغيرها من البلاد المجاورة . وتكون مهمة هذا المعهد تخريج علماء للتدريس فى المدارس الثانوية هناك ، وتخريج أئمة للمساجد ، ووعاظ ، ومبشرين ، ويدرب أخرين على أعمال التوثيق وعقد عقود الزواج .

ولقد وجدت الفكرة كلها قبولا حسنا ، ورغب بعضهم فى أن أظل هناك حتى يتم المشروع كله ، غير أنى اعتذرت لضيق الوقت راجيا لهم كل توفيق .

حاجة المسلمين هناك

من كل ما سبق يتبين أن المسلمين فى حاجة إلى :

١ — أئمة ووعاظ مثقفين بالثقافات الدينية وبالدراسات العصرية ، لا ليتمكنوا من تثقيف المسلمين تثقيفاً صحيحاً ، ومن تطهير معتقداتهم من العادات التى علقت بها فحسب ، بل ليتمكنوا كذلك من دفع الشبه التى تثار أو يمكن أن تثار هناك ضد الإسلام بأسلوب يفهمه الرجل الحديث . ولقد قابلت هناك بعض الأوربيين الذين أسلموا حديثاً بوازع نفس نتيجة لدراساتهم الخاصة ، فليست حاجتهم الشديدة إلى من يرشدهم ارشاداً قويما . فقد أخذوا بعض العادات التى لم تهضمها عقولهم على أنها جزء من الدين ؛ وكانوا ، من جراء ذلك ، فى قلق شديد . فلما علموا منى أنها لا تمت إلى الدين بصلة استراحوا واطمأنت قلوبهم . انهم لم يتركوا دين الآباء إلا لأنها ناقضت عقولهم وألغت تفكيرهم . فلما وجدوا فى الإسلام انسجاما مع العقل والمنطق قبلوه ، ولكنهم صودموا ببعض العادات التى لصقت بالدين، ولكنها تتجافى مع حكمته واتزانه . ومن ثم كانت الحيرة وكان التردد . ولقد طلبت إلى من قابلنى من هؤلاء أن يتصل بى كلما عنت له مشاكل حول الإسلام . ولا يزال المبشرون يستعملون أساليب الاغراء والتهديد والتشكيك ووضع العقبات فى سبيل المسلمين لتحويلهم إلى مسيحيين ، فوجود المثقفين بينهم قد يخفف من حدة هذه الحرب أو من شدة وقعها على النفوس .

٢ — مدرسين ليقوموا بالتدريس فى مرحلة التعليم الأولية المفتوحة لهم الآن ، وفى مراحله الثانية والعالية التى ستيسر لهم قريبا حين ينفذون الاقتراح الذى تقدمت به إليهم .

٣ — معلمين لتدريب من سيشتغل منهم فى مهنة التدريس . وسأشير إلى هذه الفقرة ثانية فى مكان آخر .

٤ — كتب دينية وعربية ومصاحف . وحاجتهم لتلك الكتب شديدة المساس ، لأنها منعدمة بينهم . بيد أن الكتب العربية وحدها عديمة الجدوى ، لأن الذى يفهم العربية منهم يقل عن واحد فى كل ألف بكثير . فحبذا لو ترجمت لهم بعض الكتب الضرورية إلى اللغة الانكليزية : فتختار مجموعة منها ثم تترجم هنا أو هناك ، على أن ترسل لهم تراجم معترف بها لتفسير القرآن كذلك .

٥ — المساعدة على إنشاء مركز ثقافى هناك ومعهد للدراسات الإسلامية .

٦ — المساعدة على بناء مساجد جديدة وعلى ترميم الموجود منها .

تلك هى حاجاتهم التى تستنتج من دراسة ما هم عليه من أوضاع ، والتى يسمعها الإنسان على كل لسان . وتلك حاجات حقيقية ، ولكنى أعتقد أن كثيرا منها يمكن أن يقضى من غير حاجة لإعانة خارجية سوى شىء من التوجيه ، وأن بعضها يحتاج بلا مراء إلى المعونة الخارجية . فلننظر الآن فى تلك الحاجات لنرى ما يحتاج إلى العون الخارجى منها وما يمكن قضاؤه منها فى الداخل .

أما فى مرحلة التعليم الأولى فيخيل إلى أنه يصعب علينا أن نساعدهم فيها بغير التوجيه ، فليس من المتيسر أن نرسل جيشاً من المدرسين يكفى لتغذية هذه الآلاف المؤلفة من الكتاتيب والمدارس الخاصة . ولو وجد عندنا المال والرغبة لعجزنا عن إيجاد مثل هذا العدد الذى ينبغى أن يجيد اللغة الانكليزية فوق صلاحيته الفنية للتدريس . فلا بد لهم من أن يكتفوا بالقدر الموجود عندهم من المدرسين . على أن المشروع الذى تقدمت به كفيل بأن يحل قدراً كبيراً من المشكلة . ذلك أنه يوجد بالبلاد عدد كبير من المسلمين الذين يصلحون للتدريس ، ولكنهم لا يشتغلون به الآن لسبب واحد : هو أن الجمعيات الخاصة والمدارس الأهلية لا تعطى من المرتبات ما يكفل لهم حياة كريمة . ولكنهم سيجدون مجالا فسيحاً فى المشروع الجديد ، لأن المدارس فيه ستكون حكومية أو معانة من الحكومة وتحت إشرافها العام ، وستكون

المرتبات فيها موازية لسائر مرتبات المدرسين . وليس ذلك خيالا ، لأن الحكومة تقوم بذلك بالفعل بالنسبة لبعض مدارس المسلمين : تدفع أجور المدرسين ومصاريف المدرسة كلها ، وتدفع فى بعض الأحيان أجور البناء للمالك المسلم ، ولا تشترط من الشروط غير الرقابة العامة ، وغير فنية المدرسين ، وأن تقبل المدرسة من يتقدم إليها من غير أبناء المسلمين ما دام فيها متسع .

أما فى المرحلة الثانية فإنها ستبدأ ، حين تبدأ ، على نحو ضيق ، لا يزيد على فصل أو فصلين فى كل ولاية من الولايات الثلاث . ولا شك أنه لا يوجد من بينهم من يصلح لتدريس اللغة العربية والمسائل الإسلامية فى المرحلة الثانية إلا عدد قليل . وقد لا يوجد من يصلح فى الوقت الحاضر . لذلك ينبغى أن تساعدهم مصر فى هذا الصدد حين يبدأون هذا النوع من التعليم . ولكن الخطوة الأولى ينبغى أن تأتى من جانبهم .

كذلك الشأن بالنسبة لمرحلة التعليم العالى ، سواء أكان ذلك فى جامعة الكاب أم فى المركز الإسلامى الذى أشرت إليه . فليس لديهم فى الوقت الحاضر من يصلح للتدريس فيها أو للإشراف عليها ، لذلك ينبغى أن تكون إدارتها العلمية والتدريس فيها ، حين تتم ، فى أيدى رجال مصريين ممن لهم معرفة تامة بالدراسات الإسلامية واللغة العربية ، ويجيدون اللغة الانكليزية .

غير أنه يمكن من الآن إرسال بعض المدرسين ليعمل على تربية شبان وتأهيلهم ليقوموا بتدريس الدين واللغة العربية فى المدارس الموجودة هناك بالفعل ؛ وهذه فكرة مقبولة لديهم وهينة التنفيذ ، ولقد حاول المسلمون فى « دربان » تجربتها فى العام الماضى ، فاستدعوا الأستاذ أشراط حسين من علماء الهند ، فقدم وظل يعمل هناك أكثر من عام ، وكان لعمله خير النتائج ، ولكنه اضطر للسفر أخيراً تحت ضغط عوامل خارجية ، ولقد علمت من هؤلاء المسلمين بنوع خاص

أنهم سيكتبون للأزهر راجين أن يرسل إليهم واحداً من العلماء أو أكثر من واحد ليقوم بتلك المهمة : مهمة التدريب .

وإنى أعتقد أن فكرة تدريب المدرسين هناك فكرة طيبة لأنها تؤدى إلى الغاية المرجوة ، سواء أكانوا قادرين على تنفيذ المشروع الذى اقترحته عليهم الآن ، أم غير قادرين على تنفيذه . فحبذا لو فكرنا فى هذا الموضوع جديا ، وعلى نحو يشمل الولايات كلها ولا يختص « بدربان » فقط التى ينتظر أن تتصل بنا فى هذا الصدد .

هذا ، وأما الأئمة للمساجد فلست أرى وجها لإرسال أحد من مصر فى الوقت الحاضر ، لأن لكل مسجد هناك إمامه ، وهو يرتبط فى الغالب بأواصر القرابة أو النسب بأفراد الجالية التى يؤمها . على أنهم يقومون بمهمتهم التى وكلت إليهم على أحسن وجه يستطيعونه ، ولست أذيع هنا سراً إذا قلت ان كثيراً من المتفقهة ورجال الدين يخشى النهضة التى قد تكون على حسابهم ، ولكنى أرى أن كل حركة إصلاحية لا بد لها ، ليتأتى لها النجاح ، أن تنتفع بأمثال هؤلاء ، وتعمل على إرضائهم .

أما الوعاظ والزوار الذين يزورون هذه البلاد بين الفنية والأخرى فأرى أنه ضرورى ولازم للأسباب التى ألمعت إليها سابقا . غير أن إجادة اللغة الانكليزية إحدى الضرورات التى ينبغى أن تتوافر فى الزائر أو الواعظ ، فوق ما يتصف به من غزارة العلم وقوة الحجة وبسرعة الخاطر والزهد والعفه . كذلك ينبغى أن توفر له الدولة ما يحفظ عليه كرامته ويمكنه من الإقامة فى فنادق الأوربيين أثناء زيارته لتلك البلاد .

كذلك الشأن بالنسبة للكتب والمصاحف . فحاجتهم إليها ماسة ، ولا يتمكنون من طبعها هناك أو استيرادها من غير مصر .

وأما المال لبناء المساجد وتعميرها ، فيخيل إلى أن الناس هناك يقدرون على أن يعملوا كثيراً ، إذا ما نظمت وجوه الخير ، وتضامنوا فيما بينهم تضامنا أكثر مما هو واقع الآن .

من كل ذلك يتبين أن حاجتهم إلى التوجيه ولمّ الشمل أكثر منها إلى أى شىء آخر ، وأنه لو وجد الموجه الصالح واستصحب معه قليلا من المساعدة التى أشرت إليها ، ووجدت، منهم الرغبة الصادقة فى التعاون معه — وتلك على ما اعتقد موجودة ـ لا نحلت مشاكلهم التعليمية فى عدد قليل من السنوات . ولست أبالغ إذا قلت ولا نحل ، بالتالى ، كثير من مشاكلهم الاجتماعية والسياسية .

المسلمون ومصر

تلك هى آمالهم وآمانيهم من الناحية الثقافية ، وما أظنه ممكن التنفيذ منها . وهم ينظرون إلى مصر نظرتهم إلى المعين الأول بل المعين الأوحد الذى يمكن أن يستمد منه ، والزعيم الإسلامى الذى ينبغى أن يتفقد من تزعمه ، وخاصة ، وقد حباها الله بالأزهر الشريف مهد الدراسات العربية والاسلامية من ألف سنة أو يزيد ، والحفيظ عليها من أن يصيبها وهن أو ضعف فى أحلك عصور التاريخ ، وحباها كذلك بعاهلها العظيم وقائدها الكبير جلالة الفاروق الذى يسر جلالته أن يرى الأزهر وارف الظلال ، منتشر النفوذ فى الأفاق ، وممتد الأثر امتدادا يجعل المسلمين ، فى جميع أنحاء المعمورة ، ينعمون به فى ظل ثقافاته الظليلة .

وفى الحق أن هؤلاء القوم يحبون مصر ومليكها حباً جما ، ويتحدثون عن جلالته بأنه قائدهم الأعلى ، ومليكهم المفدى ، وحامى حمى الإسلام . ولذلك يحتفلون بأعياد جلالته ، ويعتبرونها أعياداً لهم ومواسم .

وإنى أشاركهم الرأى فى أنهم لا سبيل لهم فى الوقت الحاضر إلا أن يفزعوا ، بعد الله ، إلى مصر وإلى جلالة قائدها المحنك الملك « فاروق الأول » ، ليخصهم بلفتة منه كريمة ، تنهضهم ، وتنهض بهم ، وتحفظ عليهم ما يعتزون به من مجد تالد ، وتراث خالد .

حفظ الله الملك وأبقاه قويا عاملا لخير الإسلام والمسلمين ؟

القاهرة { ٥ ذى القعدة سنه ١٣٧٠ / ٨ أغسطس سنة ١٩٥١

محمود حب الله

من علماء الأزهر

دكتور فى الفلسفة من جامعة لندن وأستاذ الأخلاق وعلم النفس بكلية أصول الدين

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 072545922

(NEC)
BP64
.A1
H833
1951